الفصل الثالث

نشأة الفنون الإسلامية وتطورها

- تعريف الفن الإسلامي.
- الفنون العربية قبل الإسلام.
- مراحل تطور الفنون الإسلامية عبر العصور الإسلامية المتتابعة.

أولاً: الفنون الإسلامية في عهد الرسول ﷺ.

ثانياً: الفنون الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

ثالثاً: الفنون الإسلامية في العصر الأموي.

رابعاً: الفنون الإسلامية في العصر العباسي الأول.

خامساً: الفنون الإسلامية في العصر العباسي الثاني.

سادساً: الفن الإسلامي الفاطمي.

سابعاً: الفن الإسلامي الأيوبي.

ثامناً: الفن المملوكي الإسلامي.

تاسعاً: الفن السلجوقي الإسلامي.

عاشراً: الطراز الفني المغولي الإسلامي.

حادي عشر: الفن الفارسي الإسلامي.

ثاني عشر: الفن الإسلامي التركي.

ثالث عشر: الفن المغربي والأندلسي الإسلامي.

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

نشأة الفنون الإسلامية وتطورها

تعريف الفن الإسلامي: هو الأعمال الدنيوية التي نشأت وتطورت تطوراً سريعاً في المجتمعات الإسلامية: وشملت فنون الكتابة والعمارة والصناعات المختلفة بما فيها من زخارف جمالية تخدم حاجات المسلمين بصفة عامة وتجمل حياتهم.

الفنون العربية قبل الإسلام:

عرف العرب فنوناً بسيطة قبل الإسلام بما يتلاءم مع حياتهم البدوية في أغلب الأحيان، كصناعة الخيمة من خيوط صوف الأغنام، ودبغ الجلود لاستخدامها في نقل المياه وحفظها وصناعة الأسلحة اليدوية، أما سكان المدن وهي قليلة فقد عرفوا بناء الحصون (الآطام) قرب يثرب والطائف، وقد ورد ذكرها في القرآن الكريم، وبنوا الأسوار مثل: سور الطائف، وبيوت الحجر، ولكن على نطاق ضيق بمكة والطائف، وبنوا السدود لحفظ المياه مثل: سد مأرب في اليمن، بما عليه من نقوش، ونحتوا من الجبال بيوتاً في البتراء ومدائن صالح، ونحتوا من الحجارة أصناماً فعبدوها وهي عادة دخيلة على سكان الجزيرة العربية.

- مراحل تطور الفنون الإسلامية عبر العصور الإسلامية المتتابعة:

أولاً: الفنون الإسلامية في عهد الرسول ﷺ"

مع بزوغ فجر الإسلام بدأت حياة العرب تنتظم تدريجياً في شتى مناحي الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية والعسكرية، وأصبح العرب أمة موحدة

بفضل الإسلام، وقد بدأت مظاهر التغيير في حياة العرب بعد هجرة الرسول ﷺ وأصحابه من مكة إلى المدينة وتكوين المجتمع الإسلامي في المدينة من المهاجرين والأنصار بقيادة الرسول ﷺ، وقد خفت في هذه الفترة بعض الفنون التي كانت تشغل العرب في الجاهلية كقول الشعر، بسبب انشغال المسلمين في القرآن الكريم وحفظه وتلاوته وفهم أحكام الإسلام، كما اختفت في المجتمع الإسلامي نحت الصور والتماثيل والأصنام التي حرمها الإسلام تحريماً قاطعاً، لتزيل آثار الشرك من قلوب العرب والتي كانت متعلقة بها قبل الإسلام، وبدأت القراءة والكتابة تأخذ مكانها عند العرب بعد أن كانت مهملة في الجاهلية ولا تشغل بال العرب كثيراً، فأصبحت مهمة جداً بعد الإسلام؛ لأن القرآن الكريم حث عليها كثيراً، كما حث الرسول ﷺ على تعلم القراءة والكتابة فتعلمها الصحابة، وحفظوا القرآن الكريم ودونه بعضهم أمام الرسول ﷺ أولاً بأول مع نزول الوحي، فحفظوا القرآن في ذاكرتهم ودونوه على الرقاق، غير أن هذه الكتابة بحروف اللغة العربية لم تتطور كثيراً ولم تصاحبها أعمال زخرفية جمالية، وهو الخط الذي كان يعرف بالخط النبطي الذي يخلو من التنقيط والحركات.

أما في مجال البناء فإن ما غلب على حياة المسلمين الأولى في عهد الرسول ﷺ بساطة العيش، ولم يلتفت الصحابة إلى البناء والتشييد أو الصناعة أو الزخرفة، وقد بنى الرسول ﷺ وأصحابه مسجد الرسول ﷺ في المدينة من الطين وجذوع النخل مسقوفاً بسعف النخيل مع الطين، وهكذا ظل الصحابة في حياة الرسول ﷺ مشدودين إلى استقبال القرآن الكريم وحفظه وتطبيق أحكامه ومواجهة اعتداءات قريش وحلفائها والدعوة إلى الإسلام بين القبائل العربية حتى عم الإسلام الجزيرة العربية، ودخل أهل مكة وسائر القبائل الأخرى في الإسلام.

ثانياً: الفنون الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم:

انشغل المسلمون في بداية خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بقمع الردة في الجزيرة العربية، وتلا ذلك إرسال الجيوش الإسلامية إلى العراق وبلاد الشام لنشر الإسلام، فاستقر الفتح في بلاد الشام ومصر والعراق وفارس وأجزاء واسعة من خراسان، فأخذت الدولة الإسلامية شكلاً جديداً في مساحتها وشعوبها ونظامها وإدارتها وأقاليمها، فبنيت المساجد على نطاق واسع في البلاد المفتوحة وارتفع الأذان في جنباتها.

واستدعت الضرورة بناء مدن جديدة تخدم جيوش المسلمين خارج الجزيرة العربية، فبنى عتبة بن غزوان مدينة البصرة في الطرف الغربي من ملتقى نهري دجلة مع الفرات عند الخليج العربي، وبنى سعد بن أبي وقاص مدينة الكوفة قرب الحيرة غربي نهر الفرات، وبنى عمرو بن العاص مدينة الفسطاط في الطرف الشرقي من تفرع نهر النيل إلى فرعي دمياط ورشيد، وقد بنيت هذه المدن الثلاث بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشكل الذي يخدم المجتمعات الإسلامية وظروف الفتح في العراق ومصر، فقد أوصى الخليفة عمر عند بناء الكوفة قائلاً: «افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان، والزموا السنة تلزمكم الجماعة (الدولة)» كما أوصاهم بأن لا يزيدوا فوق القدر الذي ليس فيه إسراف ولا يخرجهم عن القصد[1]. وقد بنيت هذه المدن على شكل دوائر تتوسطها دار الإمارة ومسجدها وحولها أحياء العرب متجاورة يتخللها شوارع وطرقات المدينة، ويلفها من جميع جهاتها أسوار لحمايتها من مباغتات الأعداء.

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١١.

ثالثاً: الفنون الإسلامية في العصر الأموي:

اتخذ الأمويون من دمشق عاصمة لهم، وهي المدينة التي تعاقبت عليها حضارات قديمة متتابعة، كما وجد العرب حضارات أخرى في كل من مصر والعراق وبلاد فارس، وقد استوعب العرب هذه الحضارات ودمجوا ما يمكن الاستفادة منه في حضارتهم الجديدة على أساس الإسلام، مما يدل على أن الإسلام لم يكن حرباً مدمرة للحضارات السابقة، وإنما جاء ليتمم مكارم الأخلاق على أساس الوحدانية؛ وليزيل الخرافات والأوهام السابقة، ويأخذ مما سبق ما هو مفيد للشعوب الإسلامية.

وقد ظهرت في الدولة لإسلامية مظاهر حضارية جديدة في العصر الأموي، في مجال العمران والخط العربي والصناعات. وقد بدأ العرب باستيعاب الفنون السابقة، وبدأت الزخارف والألوان والرسومات النباتية والأشكال الهندسية تظهر على واجهات المباني العمرانية، وبدأت أنواع الخط العربي تتطور في أشكال جمالية وفنية مصحوبة بألوان مختلفة وجذابة واهتم الفنانون بتذهيب المصاحف والمخطوطات، وتطور بناء الحصون والقلاع والمدن والأسوار والقصور والمساجد بما فيها من مئاذن وقباب ومحاريب وأعمدة ومنابر وأبراج[1]، وشارك البناؤون المهرة في بناء المساجد الواسعة بشكل يلفت الأنظار كما هو الحال في بناء المسجد الأقصى، ومسجد قبة الصخرة، والمسجد الأموي بدمشق.

ويلاحظ على الفن الإسلامي في العصر الأموي أنه لم يخرج عما يدعو إليه الإسلام من قيم وأخلاق ومبادئ سامية لالتزام الفنانين المسلمين بالمنهج

(١) حسن الباشا، التصوير الإسلامي في العصور الوسطى/ ١٣٦.

الإسلامي الذي أباحه الدين الإسلامي في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ **يا بني آدم خذوا زينتَكُم عِنْدَ كل مَسجِد وكُلُوا واشرَبُوا ولا تسْرفوا إنّه لا يحبُ المسرِفين قُلْ من حرَّم زينة اللهِ التي أَخرجَ لعبادِه والطيباتِ من الرزق** ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ **ولقد جعلنا في السماءِ بُرُوجاً وزيناها للناظرين** ﴾[2].

أما ما كان يمارسه العرب في جاهليتهم من النحت والتمثيل والتصوير فقد اختفت مظاهره في العصر الإسلامي لتأثر الناس بتعاليم الإسلام.

وفي إفريقية بنى عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٥هـ في خلافة معاوية ابن أبي سفيان لتحتضن الجيوش الإسلامية الفاتحة، بناها بعيدة عن البحر خوفاً من مباغتات السفن الرومية لها، وجعلها في موقع سهلي يناسب المواشي والإبل والخُيول لتوفر المراعي لها، كما بنى الحجاج مدينة واسط في العراق في خلافة الوليد بن عبدالملك على الطرف الغربي من نهر الفرات في موقع متوسط بين الكوفة والبصرة ليتخذها دار إمارة له بعيداً عن هجمات الخوارج الذين أفسدوا على الناس حياتهم في العراق في تلك الفترة لكثرة اعتداءاتهم على الناس الآمنين في نواحي البصرة والكوفة.

رابعاً: الفنون الإسلامية في العصر العباسي الأول:

ظهرت في هذا العصر نماذج فنية جديدة في مجالات الحضارة الإسلامية بسبب انتقال عاصمة الخلافة الإسلامية من دمشق إلى بغداد حين قامت الخلافة العباسية، واستعان العباسيون بالفرس في نظم الإدارة وقيادة الجند، وتأثر الناس

(١) سورة الأعراف / الآية ٣١-٣٢.
(٢) سورة الحجر الآية ١٦.

بعادات الفرس وتقاليدهم بسبب القرب والاختلاط بهم، وظهرت صناعة الورق فسهلت الكتابة والترجمة والتأليف، وتأثر العرب بصناعات الفرس وما فيه من طرز فنية جديدة، وتطور الخط العربي فظهرت أنواعه المختلفة مثل: خط الرقعة والخط الكوفي بأنواعه المتعددة: المستطيل والمربع والدائري، وكذلك خط الطومار والخط الفارسي والسوداني والمغربي والأندلسي، وبرزت هذه الخطوط في المخطوطات الإسلامية وعلى أطراف الأسوار والحصون والقلاع والمساجد، كما برزت فنون البناء والعمران في المآذن الشاهقة والقباب الواسعة وأقواس المساجد والقصور وأعمدتها الرخامية الملونه والمطعمة بالفسيفساء.

خامساً: الفنون الإسلامية في العصر العباسي الثاني:

ويمتاز هذا العصر بفنونه الغزيرة والواسعة وأنواعه المختلفة وزخارفه، بطرز مختلفه بسبب امتداد العصر العباسي الثاني لفترة زمنية طويلة تزيد على أربعة قرون، واختلاط شعوب كثيرة ببعضها البعض مع العرب بعد دخول هذه الشعوب في الإسلام، وحملت معها إلى المجتمع الإسلامي عاداتها وتقاليدها وحضاراتها الواسعة، فأثمر اختلاط هذه الحضارات ببناء حضارة إسلامية شامخة البنيان فعمت منافعها العالم بأسره.

وإزاء ذلك ظهرت طرز فنية جديدة ومختلفة عن بعضها البعض بسبب اختلاف هذه الشعوب بما حملت معها من حضارات في الصناعات اليدوية وبناء المساجد والحصون والقلاع والقصور وفنون الكتابة وفي طريقة بناء القباب والأعمدة والأقواس والمآذن، وفي طريقة مزج الألوان والتصوير وطريقة النقوش، ويلاحظ على فنون هذا العصر عدم الالتزام بتعاليم الإسلام في التصوير والرسم وطرق البناء كما كان عليه الحال في فنون الإسلام السابقة،

بسبب اختلاف شعوب الدول التي ظهرت في العصر العباسي الثاني مثل الترك والمغول والمماليك والبربر، وهو ما سوف يظهر معنا لاحقاً.

سادساً: الفن الإسلامي الفاطمي:

قامت الدولة الفاطمية في إفريقية (تونس حالياً) بعد اعتناق أهلها من البربر المذهب الشيعي على يد دعاة الشيعة الذين جاؤوا إليها من المشرق، واتخذوا من المهدية عاصمة لهم في إفريقية، ثم توجهت جيوش الفاطميين باتجاه الشرق بقيادة جوهر الصقلي، فاستولى على مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، وبنوا القاهرة لتكون عاصمة لهم، وامتدت دولتهم بمصر حتى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م حيث استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يعلن نهاية هذه الدولة وإقامة الدولة الأيوبية مكانها.

وفي عهد الفاطميين ظهرت أنماط جديدة من صناعة المنسوجات تتخللها رسومات بأشكال مختلفة من النباتات والحيوانات وألقاب مختلفة اتخذها حكام الفاطميين لأنفسهم، وظهر بناء القباب فوق الأضرحة والقباب المتنوعة على المساجد، وتعددت المآذن بأحجام عالية، واتسعت مدينة القاهرة فامتلأت بالحمامات والأسواق ذات العقود العالية، وبنى جوهر الصقلي سور مدينة القاهرة من جميع الجهات، كما بنى الفاطميون المدارس بجانب الجوامع لتدريس المذهب الشيعي لنشره في العالم الإسلامي تمهيداً للقضاء على الخلافة العباسية.

وقد ترك الفاطميون حضارة لهم بصقلية التي كانت تحت حكمهم قبل أن يستولي عليها النورمانديون، تركوا حضارة بفنون مختلفة في صك العملات وبناء المساجد وصناعة المنسوجات بما حملته من طرز فنية وتعدد في الألوان.

سابعاً: الفن الأيوبي:

قامت الدولة الأيوبية في مصر بعد وفاة العاضد آخر حكام الفاطميين سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، ثم امتدت حتى شملت بلاد الشام، وانشغل الأيوبيون في معظم وقتهم بمحاربة الإمارات الصليبية القائمة في بلاد الشام أو في مواجهة الحملات الصليبية التي توجهت نحو مصر، كما انشغل الأيوبيون في حروب داخلية بين بعضهم البعض، واستمر الحال هكذا حتى وفاة آخر ملوكهم الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨هـ.

وبسبب هذه الحروب المتواصلة اهتم الأيوبيون في إعداد الجيوش وبناء السفن الحربية، وتحصين القلاع والثغور، وخاصة ميناء دمياط على ساحل مصر على البحر المتوسط الذي تعرض أكثر من مرة لحملات صليبية، وكذلك ميناء الإسكندرية، كما قام صلاح الدين الأيوبي بإعادة ما تهدم من سور مدينة القاهرة وترميم بقية أجزائة سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م، وقام بتشييد قلعة الجبل شرق القاهرة بإشراف وزيره بهاء الدين قراقوش، وهي قلعة عظيمة لها أبراج عالية، وبداخلها قصور فخمة وإصطبلات وميادين واسعة، كما اهتم صلاح الدين الأيوبي وبقية سلاطين الأيوبيين ببناء المدارس لتدريس العلوم الإسلامية على مذهب أهل السنة للقضاء على المذهب الشيعي بمصر، ومن هذه المدارس، المدرسة الصالحية التي أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م[1].

ثامناً: الفن المملوكي:

وهو الفن الذي ترعرع في ظل الدولة المملوكية بمصر بعد وفاة آخر سلاطين الأيوبيين نجم الدين أيوب سنة٦٤٨هـ/ ١٢٤٢م، ثم امتد حكم المماليك إلى بلاد

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٧٠.

الشام، ودام حكمهم لهذه البلاد إلى سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧، حين استطاع العثمانيون أن يدخلوا بجيوشهم إلى هذه البلاد وينتزعوها من المماليك، ثم يتوسعوا بعد ذلك ليبسطوا سلطانهم على أجزاء الدولة الإسلامية. ويقيموا خلافة إسلامية باسم الدولة العثمانية.

اهتم المماليك قبل نهاية أمرهم ببناء القلاع وتحصين الثغور لانشغالهم في محاربة الصليبيين. كما انتشرت في عهدهم أبنية المساجد والمدارس والأضرحة والحمامات والأسبلة، بما فيها من قباب ضخمة فوق القبور وزخارف وألوان مختلفة فوق أبواب المساجد العالية وواجهاتها الضخمة، وظهرت عندهم الطرز الفنية الجديدة في بناء الإيوانات والمنارات والأعمدة والأكتاف والأقواس المتداخله مع الأعمدة لربطها ببعضها البعض، ومن هذه الجوامع جامع الملك الناصر محمد بن قلاوون في القلعة بالقاهرة. والذي شيده سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، وجامع السلطان بيبرس البند قداري الذي شيده فيما بين ٦٦٥-٦٦٧هـ/ ١٢٦٦-١٢٦٩م ومسجد السلطان حسن بن الملك الناصر بن محمد بن قلاوون الذي شيده سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٨م، وقد استمر في بنائه ثلاث سنوات، ويمتاز بسعته وزخارفه التي تشبه خلايا النحل من الداخل والخارج وأبوابه الضخمة وله مدرسة ملحقه به ومساكن للطلبة وشيوخهم، كما يمتاز بجدرانه العالية، ونوافذه، وحولها المقرنصات الجميلة محاطة بأشرطة من الكتابة بالخط الكوفي من الآيات الكريمة، ومنبره من الرخام الأبيض، ومحرابه مجوف ومزين بالنقوش الذهبية يحيط به عمودان من الرخام، وله منارتان عاليتان يبلغ ارتفاع الواحدة منهما ٦٠, ٨١م[1].

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ٧٢-٧٦.

كما اهتم المماليك ببناء المقابر الكبيرة، وفوقها أضرحة تعلوها القباب الفخمة، ويتبعها مساجد مزخرفة، يعلو كل مسجد بجانب الضريح مئذنتان عاليتان، وأشهر هذه المدافن بالقاهرة مدفن قايتباي، وله ملاحق من ماء سبيل وسقوف مزخرفة لها شبابيك مزدانة بألوان مختلفة يحيط بها رسومات هندسية ونباتية.

كما اهتم المماليك ببناء المستشفيات والمدارس مزخرفة بآيات من القرآن الكريم، ولها قباب محمولة على أعمدة من الجرانيت مرصعة بالفسيفساء، واهتموا ببناء الحمامات، أقسام منها للرجال وأخرى للنساء، واسعة جداً وجدرانها مرتفعة مزودة بالماء الحار والبارد.

تاسعاً: الفن السلجوقي:

السلاجقة جماعات من الترك هاجرت من بلادها شرق نهري سيحون وجيحون، واستقروا بجوار جند وبخارى بقيادة سلجوق بن دقاق حوالي سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وجاوروا المسلمين في هذه البلاد ثم دخلوا الإسلام، واستطاعوا أن يجتاحوا نهر جيحون إلى خراسان فاستولوا عليها من الغزنويين، واعترف بهم الخليفة العباسي القائم بأمر الله سنة ٤٣٢هـ/ ١٠٥٠م لإدارة البلاد التي استولوا عليها، ثم جاؤوا إلى العراق وبلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وتقاسموا إدارة هذه البلاد مع الخلافة العباسية، وأصبحوا هم الحكام الحقيقيون في البلاد التي دخلوها واتخذوا لأنفسهم عواصم يقيم بها سلاطينهم، كما اتخذوا لأنفسهم وزراء يشرفون على تنظيم البلاد التي يديرونها بموافقة الخلفاء العباسيين، وقد استمر هؤلاء السلاجقة على هذا الحال حتى أواخر القرن السادس الهجري حيث انقسموا على أنفسهم وضعف سلطانهم وحلت محلهم

دول أخرى مثل: الزنكيين في بلاد الشام والخوارزميين في خراسان ونواحيها، والإسماعيليين في بلاد فارس[1].

وقد ظهر السلاجقة في بداية أمرهم بمظهر القوة المدافعين عن الخلافة العباسية وعن الإسلام، وهزموا البزنطيين في أكثر من موقعة حاسمة، واهتموا ببناء المساجد على نمط جديد من الزخرفة وشكل المآذن المخروطية المرصعة بالفسيفساء تحيط بها وبسائر المساجد كتابات من آيات القرآن الكريم بخط كوفي، كما اهتموا ببناء المدارس الملحقة بالمساجد لتعليم أحكام الدين على مذهب أهل السنة والجماعة (المذهب الشافعي مذهبهم خاصة) لمقاومة المد الفاطمي الشيعي الذي قوي شأنه في فترة ظهورهم للقضاء على الدولة العباسية، ومنها: المدارس النظامية (نسبة إلى نظام الملك أحد وزرائهم) كما ازدهرت في عهدهم أبنية العمائر وخاصة في مدن خراسان وفارس ذات القباب الضخمة الملونه وذات الأعمدة والأكتاف العالية، كما اعتنوا ببناء الحصون والقلاع والاستحكامات الحربية لانشغالهم في الحروب طيلة مدة وجودهم في إماراتهم السلجوقية ما يقرب من قرن ونصف، وبنوا الخانات على طرقهم الرئيسة، عليها زخارف هندسية ونباتية مع رسومات للكائنات الحية ورسومات للطبيعة متأثرين بالفن الصيني مع ما يرافقه من ألوان جميلة[2]، وكتبوا في عهدهم المخطوطات في العلوم العقلية رافقها صور آدمية وطبيعية وحيوانات مختلفة، وتتميز هذه الرسومات بدقة في الرسم وكثرة الألوان والزخارف الجمالية[3].

---

(١) ابن الجوزي، المنتظم ج٨/ ١١٦ وما بعدها.
الراوندي، راحة الصدور/ ١٦٨ وما بعدها.
الذهبي، دول الإسلام ج١/ ١٨٨ وما بعدها.

(٢) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١٠٠.

(٣) انظر: الأشكال ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١٧١-١٧٣.

عاشراً: الطراز الفني المغولي:

المغول عبارة عن قبائل بدوية كانت تعيش في شمال الصين في الجهات الشرقية الشمالية من بلاد التركمان[1] جمعهم لأول مرة في تاريخهم في أواخر القرن السادس الهجري قائد عسكري منهم يدعى جنكيز خان، وبدأ بتنظيم جيش كبير من هؤلاء المغول وفي نيته إقامة دولة مغولية مترامية الأطراف ليست فقط في البلاد التي يتواجدون فيها وإنما التوسع غرباً باتجاه أوروبا وإلى سائر أنحاء الدولة الخوارزمية بخراسان ونواحيها، وقد استطاع جنكيز خان بمن معه من أعداد كبيرة من المغول أن يسيطر على مناطق واسعة شمال وشرق بلاد التركمان، ثم بدأ بمساعدة أبنائة الأربعة، الذين سلمهم قيادة الجيوش المغولية بدأ بالتحرش بالدولة الخوارزمية التي كانت تمتد إلى خراسان، فتصدى لهم السلطان الخوارزمي محمد خوارزم شاه في أكثر من موقعة منذ سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م، ثم توفي محمد خوارزم شاه سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢١م أثناء مطاردة المغول له في نواحي بحر قزوين، فتولى الملك بعده ابنه جلال الدين منكبرتي، ولكنه لم يصمد في وجه المغول حيث استولوا على جميع خراسان وبلاد التركمان شمال نهر جيحون ونواحي بحر قزوين، إلاّ أنهم انسحبوا منها وعادوا إلى بلادهم بعد أن خربوا ودمروا وحرقوا وقتلوا الآلاف المؤلفة من سكان البلاد التي اجتاحتها جيوشهم.

ثم جاءت حملة هولاكو المغولي، فاجتاحت خراسان من جديد سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م وانتهى عهد الدولة الخوارزمية على أيديهم، كما استولى هولاكو على بلاد فارس وسحق في طريقه الإسماعيليين، ثم واصل زحفه إلى العراق فاستولى عليها ودخل بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، وقتل الخليفة العباسي

(١) اسماعيل الخالدي، العالم الإسلامي والغزو المغولي/ ١٩.

المستعصم بالله، ثم دخلت قوات المغول بلاد الشام من ناحية الشمال حتى وصلت إلى دمشق فاستولوا عليها، وواصلوا زحفهم من دمشق إلى الغرب ليواصلوا طريقهم الى مصر حتى وصلوا إلى عين جالوت في أرض فلسطين، فتصدى لهم المماليك بقيادة قطز وبيبرس سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م وهزموهم، واستنقذوا منهم دمشق وحلب وحماة وحمص حتى حدود العراق.

وبقيت قوات المغول في العراق وفارس وخراسان إلى شمال وشرق وغرب بحر قزوين وأقاموا في هذه البلاد أربع ممالك مغوليه هي: مملكة المغول الإيلخانية في خراسان وفارس، ومملكة المغول الجغتائيين في شمال نهر جيحون، ومملكة المغول القبجاق شمال شرق البحر الأسود باتجاه بحر قزوين، ومملكة المغول في هضبة منغوليا شمال الصين، شرق الدولة المغولية الجغتائية.

وقبل قيام الدول المغولية في هذه البلاد كان المغول يعتنقون ديانات مختلفة ومنها: عبادة مظاهر الطبيعة ومنها الشمس، وعبادة الأصنام، والنصرانية والبوذية التي كانت منتشرة في الهند والصين، وبعضهم كان يعبد أرواح الأجداد السابقين[1]، وبعد أن استقر المغول في إماراتهم واختلطوا بالمسلمين وفهموا أحكام الإسلام بدؤوا بالدخول في الإسلام جماعات وأفراداً، حكاماً ومحكومين حتى أصبحت هذه الإمارات إمارات مغولية إسلامية، وتبنوا الإسلام عقيدة وشريعة، وعملوا على نشر الإسلام خارج الإمارات المغولية لمن حولهم إلى نواحي الهند والصين وسيبيريا وجنوب روسيا[2].

(١) المصدر السابق نفسه/ ٣٢ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه/ ٢٣٥ وما بعدها.

وفي هذه البلاد التي أقام المغول لهم إمارات مغولية إسلامية نقلوا معهم عاداتهم وتقاليدهم وفنونهم وخاصة الفن الصيني، كما غلب على المغول الفن الحربي في أساليب القتال وأسلحته في بداية أمرهم، وعندما تم لهم الاستقرار في بلاد المسلمين التي استولوا عليها ودخلوا الإسلام بعد ذلك مالوا إلى بناء المساجد والحصون والقلاع والأضرحة التي شيدوها على شكل أبراج مزينة بالفسيفساء، وأضرحة ذات قباب ضخمة ومساجد ذات قباب ومآذن في مدن سمرقند وأصفهان ومشهد ويزد وتبريز، وقد امتازت هذه المباني بواجهات عالية مزينة ومزخرفة بفروع نباتية ومذهبة. كما أقام المغول المساجد والقباب فوق الأضرحة، ومنابر مرصعة بالفسيفساء بألوان في غاية الإبداع منها: اللون الأزرق والأصفر والأخضر والأسود والأحمر والأبيض[1].

وقد صاحب الحملات المغولية إلى بلاد المسلمين الصناع والفنانين وعكست أعمالهم الفنية صور معيشة المغول وحروبهم، وتمتاز هذه الصور الفنية بدقة في التصوير وإظهار الملامح الشخصية وإظهار الطبيعة من سحب وأشجار وحيوانات خرافية، وطيور وألوان مختلفة ممزوجة بشكل جميل جداً، لدرجة أنه يمكن تمييز سحنة الأشخاص إن كانت عربية أو مغولية أو فارسية، كما يمكن تمييز الضحكات إن كانت ساخرة أم حقيقية، والتمييز بين الأعمار المختلفة، والتمييز بين الملابس العربية أو المغولية، وتصوير الأمراء وحاشيتهم[2].

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ص١٠٣ وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه/ ١٧٢ وما بعدها.

حادي عشر: الفن الفارسي:

امتزج الفن الفارسي القديم بما يناسب حياة المسلمين في الدولة الإسلامية بعد أن دخل أهل فارس وخراسان في الدين الإسلامي وشكل الفرس مع العرب أمة إسلامية واحدة، فازدهر بناء المساجد وازدهرت الصناعات المختلفة والأضرحة ذات القباب والأعمدة والأكتاف والأقواس المتداخلة، وهذه المباني العمرانية حملت معها مناظر جمالية من الفسيفساء المرصع بالألوان المختلفة وأشكال نباتية وهندسية، ويمتاز الفن الفارسي بدقة التصوير بذوق رفيق في توزيع الألوان ومعالمها، كما برع الفرس بالرسومات والتصوير في تزيين الجدران وصفحات المخطوطات الإسلامية التي تمثل موضوعات معينة تملؤها الزهور والمناظر الطبيعية، كما امتازت اللوحات الفنية الفارسية برسم اللباس الشخصي بدقة متناهية[1] وقد ترعرع الفن الفارسي في مدن فارس وخراسان وخاصة هراة وتبريز وأصفهان، ويميل فنانو الفرس في رسوماتهم إلى رسومات حيوانات مفترسة وسط مناظر طبيعية يطاردها رجال يمثلون ملوك الفرس السابقين، وهم يطاردون هذه الوحوش الكاسرة بما يشير إلى القوة التي يمثلها ماضيهم الغابر.

ثاني عشر: الفن الإسلامي التركي:

أقام الأتراك دولتهم التي أطلقوا عليها الدولة العثمانية، واتخذوا من القسطنطينية عاصمة لهم سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، وأطلقوا عليها اسماً جديداً هو إستانبول، فهاجر عديد كبير من فناني المشرق الإسلامي إلى العاصمة العثمانية إستانبول، كما لجأ إليها عدد كبير من الفنانين الأوربيين، وعلى أكتاف هؤلاء

(١) المصدر نفسه/ ١٩٠ وما بعدها.

جميعاً ظهر الفن التركي العثماني وخاصة في مجال البناء سواء منها المساجد أو القصور أو القلاع، وتمتاز أبنيتهم بكثرة القباب والمآذن وكثرة الزخارف على الجدران، ووجود صحن للمسجد وأروقة داخلية، وكثرة الأعمدة المحمولة على أكتاف، وكثرة المقرنصات وسعة الأبواب وضخامتها[1].

كما انتشرت عندهم المباني الدفاعية كالأسوار والقلاع والحصون لكثرة حروبهم في طول البلاد وعرضها، واهتموا ببناء الأضرحة لأسر العثمانيين وعليها آيات من القرآن الكريم، وبنوا الخانات للدواب، كما بنوا الأسبلة والأسواق المعقودة، وتتميز الزخارف العثمانية أنها زخارف تركية سلجوقية مع توزيع جميل في الألوان واستخدام القاشاني ذات الألوان المتعددة الأزرق والبنفسجي والأخضر تحيط بها رسومات ذهبية وزخارف نباتية وعناقيد من العنب والرمان والزهور[2]، كما ازدهرت في العصر العثماني كتابة المخطوطات، واهتم الكتَّاب بزخرفتها وإضافة الصور إليها، وإبراز الجند وملابسهم ورسومات القوارب وهي تصارع الرياح في البحار، وبداخلها صور لسلاطين العثمانيين[3]. وتمتاز هذه الصور بإظهار الزي التركي مثل القلنسوة والعمامة والملابس التركية، واستعمال الألوان المحببة لهم مثل: اللون الأصفر والأخضر، وكثيراً ما يظهر رجال العثمانيين في الصور مع أسلحتهم ومناظر القتال، اعتداداً بقوتهم.

ثالث عشر: الفن المغربي والأندلسي:

دخل الفن الإسلامي من الشرق الإسلامي إلى المغرب والأندلس، وخاصة في أعمال البناء مثل: المساجد والقصور وبناء المدن والأسواق والأضرحة ذات

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١٣٧-١٣٨.
(٢) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١٤٢-١٤٣.
(٣) المصدر نفسه/ ٢١٦- وما بعدها.

القباب فوق القبور، وقد انتشر استخدام الخط العربي في المغرب والأندلس سواء في المخطوطات الإسلامية أو على أطراف الأبنية وخاصة المساجد ذات الأعمدة الرخامية والزخارف الجمالية، ثم دخل عصر المرابطين والموحدين في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي إلى كل من المغرب والأندلس، ولا تزال آثارهم الفنية في المساجد والمدارس والمدن، والأسوار والقناطر والحصون والقلاع والأسواق والحمامات والقصور والأعمال الفنية الأخرى في كل من مراكش وفارس وإشبيلية وغرناطة وقرطبة[1].

وقد أدخل المرابطون فناً جديداً في البناء بدلاً من الأعمدة في بناء الأكتاف فظهر نوع جديد من المآذن ذات القاعدة العريضة المربعة ترتفع فوقها المئذنة تتخللها شرفات كأسنان المنشار[2]، واختفت في عصر المرابطين بالمغرب والأندلس مظاهر الأضرحة التي كان يطلق عليها قبلهم قبور الأولياء الصالحين؛ لأن دولة المرابطين والموحدين قامت على أساس محاربة الشرك ومحابة البدع التي كانت منتشرة في المغرب قبل عهد المرابطين، كما اختفت مظاهر الاهتمام بالقصور؛ لأن المرابطين انشغلوا في الجهاد وانصرف همهم إلى توحيد المغرب ودول الطوائف التي كانت قائمة في الأندلس لمواجهة ملوك النصارى الذين شنوا حروباً شعواء على تلك الدول هناك[3].

(١) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١١١- وما بعدها.
(٢) المصدر نفسه/ ١١٢-١٢٣.
(٣) زكي محمد حسن. فنون الإسلام/ ١١٤- وما بعدها.